في البداية وقبل أن أخط كلماتي لنذهب معًا في رحلة ستدركون فيها حياتي.. والتي لم تكن يومًا حياة!

أنا حسن!

أخط تلك السطور المعبرة عن حياتي، لا بل سأقول معاناتي التي لم تمت للراحة بِصلة.

رحلة انتهت بي إلى آخر مكان من الممكن أن يخطر على مخيلتي، حيث الوِحشة.. الخوف.. والمجهول!

الفراق هو جرح في القلب، عنوانه الألم والغُصة للابتعاد عمن نحبهم.

أشخاص اعتدنا على وجودهم، رسمنا طريقنا وبنينا أحلامنا معًا.. لكن بلحظة انتهى كل شيء وأصبحنا وحيدين نعاني من أثر الرحيل!

فماذا إذا جاءت الضربة من أقرب الناس إلينا؟

ماذا لو أجبرونا على تركهم؟

بيت صغير وسط حي من أحياء القاهرة الشعبية، يتكون من غرفة واحدة وصالة ضيقة.. بمجرد النظر له سيعبر عن مدى فقر وقحط أصحابه!

تعيش به عائلتي المكونة من ثلاثة أشخاص..

أب امتلأ قلبه بشتى أنواع القسوة والعنف، بعيد كل البُعد عن مسمى الأبوة والإنسانية!

لا يعرف عن السند والاحتواء شيئًا!

نعم.. هذا هو أبي الغير حنون.

وأُم لا حول لها ولا قوة تحاول جاهدة امتصاص ما نعانيه من قسوة بحنانها الذي لا مثيل لا وعطفها الذي يملأ قلبها!

لكن بالفعل فاقد الشيء لا يعطيه!

كيف ستخفف عني وهي نفسها تعاني من قسوته وعنفه؟

كيف لها أن تداوي جروحي وجسدها مليء بالجروح؟

جلست بجانبي على الأرض تطيب جروحي النازفة من أثر حزامه.. وجهها مغطى بالدموع التي لا أذكر متى آخر مرة لم أراهن فيها؟

أسمع همسها الذي لا تمتلك غيره لتخفف وجعي، وكفها يربت على قلبي :

-" سامحني يا بني، أبوك لن يتغير طوال حياته فلا تبتئس"

أجبتها وصوتي محمل بالوجع لا أعلم مصدره أهو من ألم جسدي أم روحي؟

-"لا عليكِ أمي.. لكن لا أفهم لما يفعل هذا؟ ألسنا عائلته؟"

أغمضت عينيها تضغط عليهما بقوة تهز رأسها كمن يطرد الحقيقة من مخيلته فهبطت الدموع بشدة على وجهها، لتضمني بحنان :

-" كل شيء سيهون بني.. كل شيء سيهون"

صدح صوت أبي يهدر بقوة مقتحمًا الغرفة على وجهه قسوة لم أعتد غيرها في حياتي :

-"قم يا مدلل أمك فبضعة ضربات لن تُميتك.. هيا لتذهب إلى الورشة لقد تحدثت مع صاحبها ليعيدك إلى العمل ووافق"

ثم اقترب مني جاذبًا إياي من ذراعي هامسًا بفحيح من بين أسنانه بوعيد ارتعد له قلبي :

-" قسمًا بالله إن صدر منك أي أمر سأفصل رأسك عن جسدك.. هيا لتذهب"

أومأت برأسي في ذعر عساه يرحم ذراعي الذي أوشك أن يخرج في قبضته، نهضت مسرعًا أرتدي ثيابي وحذائي.. حقًا أخجل وأنا أطلق عليه لفظ حذاء من مظهره الرديء المُرقع بالفتحات والنعل مهترئ.

لم يرأف بحالتي ويتركني حتى تلتئم جروحي التي سببها لي، لأذهب إلى جحيم من نوع آخر.

ذهبت إلى الورشة، تناولت أدواتي لأرى السيارة المُعطلة ولم أسلم من كلمات صاحبها اللاذعة وضرباته في قيامه وقعوده بصوته الساخر :

-" أحمد ربك على عودتك، لم أفعلها إلا لكثرة العمل وليس حبًا لك ولا لأبيك"

بدلًا من الغضب والحزن من كلماته ابتسمت بسخرية من حقيقة كلماته هامسًا في قرارة نفسي:

-" صدقت.. ومن يحب أبي"

صدمة مريرة أن تعانق الواقع بأحضان الدهشة كل يوم!

وأن تحيا كل صباح وتفتح النوافذ مع كل إشراقة شمس على صدمة تلو الأخرى!

مرت الأيام مثل بعضها ولم نسلم من قسوته، إلى أن جاء اليوم الفاصل لكل شيء..

استيقظت على صوت شجار عالٍ بينه وبين أمي يطالبها بالأموال كي يخرج من هنا.. لينفقها على المخدرات والخمر عائدًا قُبيل الفجر مترنحًا لا يرى أمامه، لكن هذه المرة ليست كمثيلاتها، رفضت أمي إعطاءه الأموال فقام بدفعها في عنف لتسقط على الأرض وتصطدم رأسها بالكرسي الحديدي الموضوع بالصالة.

سقطت متوفية!

سقطت سائلة في الدماء ولم يسعفني فعل شيء؟

فما عساه طفل صغير في العاشرة من عمره أن يفعل؟

لم تنتابني الشجاعة أن أخبر الجميع أنه السبب في موتها، أنه من قتلها.. هي لم تمت بسبب الدفعة بل

قتلها منذ سنوات كثيرة مضت بقسوته وجبروته الذي لم ينته ويتراجع بعد فعلته!!

تمادى وتجبّر وقام بطردي من المنزل قائلًا بحدة ممزوجة بسخرية :

-"أذهب وأنفق على حالك، فأنت لم تعد صغيرًا.. لن أتحمل عبئك أنت الآخر"

خرجت من عالمي الصغير إلى عالم أكبر وأوسع..

عالم بيده أن يبدل حياتك بأكملها..

أبوابه مفتوحة لطرق الفساد والضياع..

فيه جميع الدروس والأوجه..

هذا العالم هو "الشــارع"

الحياة قاسية حينما تنحدر الدموع من عينيك، دموع الألم.. الظلم.. ودموع البراءة!

حينما تشعر بغربة المشاعر التي هي أقسى وأشد من غربة الوطن.

حينما تدرك أنها ليست سوى ألعوبة، وأنت أحد المشاركين فيها، فإما خسارة أو ربح.

كرمية زهر تلقيها مختبرًا حظك.. إما تصيب أو تخيب!

نظرت إلى الباب المغلق في وجهي ولا أعلم أن جميع الأبواب ستشبهه في المستقبل.

كانت ليلة شتوية قارصة، المطر يهطل بشدة والبرق ينير السماء بين الحين والآخر يصاحبه صوت الرعد ينشر حالة من الرعب بداخلي.. جلست أسفل سقف خشبي لمحل صغير مغلق أُدلك ذراعيّ عسى أن ينتشر الدفء في جسدي الذي يرتعش من البرد القارص، فلم أشعر بنفسي وأنا أغط في نوم عميق مكاني.

لتمر الأيام بعد ذلك بلا مأوى ولا سبيل غير الشارع وأسفل الكباري، عالم آخر وحياة أخرى لكثير من الأطفال لم أكن أظن أنني سأرى مثل هذا في حياتي.

ابتسمت ساخرًا وصفعة من جلد الذات هبطت على رأسي :

-"وأنا كنت أتمنى أن أهرب من وجه أبي فالشارع أحن!

يبدو أن مسمى حنان لا وجود له"

جلست استند إلى جذع شجرة بيأس بعدما فشلت كالعادة في إيجاد عمل آتي منه بطعامي على الأقل، أغمضت عيني وأنا أتمنى ألا أفتحهما ثانيةً لكنني شعرت بتربيتة على قدمي لأجده محمد صديقي الذي تعرفت عليه من الأيام، يمد كفه بنصف رغيف وقطعة جُبن وهو يقول بنبرة متريثة :

-"هون عليك يا حسن، سأخبرك شيئًا.. أنا معي كثير من المحارم، ما رأيك أن تأتي معي نبيعهم في الإشارات نكسب منهم بعض النقود يساعدونا في تمضية اليوم"

نظرت له بدهشة وأعين متسعة من الحديث :

-"نتسول!!"

ضحك بقوة ساخرًا وهو ينظر إليّ كأنني ألقيت فكاهة قائلًا من بين ضحكاته :

-"لا تجعلني أشعر أننا أبناء وزراء ونحن هنا لنستجم، كل هؤلاء الأطفال ومن بينهم نحن لا نملك غير ذراعنا يا حسن، لا نملك أب ولا أم بل أنت عائلة نفسك"

مر شهران وفي إحدى المرات التي نبيع فيها المحارم بين السيارات حدثت مشاجرة بين محمد وأحد السائقين، فتدخلت أنا وشخص آخر يدعى سعد كي ننهي الشجار لكن محمد أخرج سكينًا صغيرًا من جيبه وضرب الرجل فأصابه بجرح غائر في بطنه وركض.

وقفنا مصدومين للحظات ثم ركضنا أنا وسعد عندما وجدنا الناس تريد إمساكنا وتسليمنا إلى الشرطة.

اختبأنا في كوخ من القش تحت الكوبري، ثلاثة أطفال من نفس السن ألقاهم القدر في الشارع بأسباب مختلفة..

محمد يتيم الوالدين، أو بالأصح نشأ لا يعلم من هو أبويه، نضج وجد نفسه في ملجأ للأيتام تربى فيه

حتى سن الثمانية ليهرب بعد ذلك بعدما استكفى من المعاملة السيئة التي كان يتلقاها من ضرب وإهانة وحرمان من الطعام لأيام طويلة!

أما سعد عانى إهمال الوالدين، انفصل أبواه وهو صغير لتتزوج أمه شخصًا رفض أن تأخذه معها فاختارت حياتها وتركته لأبيه، فمكث مع زوجة أبيه ليرى ويتذوق معاملة زوجة الأب السيئة والتي انتهت باتهامه بالسرقة ودفعت والده للزج به خارج المنزل.

وإذا تحدثت عن الصفات فمحمد ماكر خبيث، على الرغم من صغر سنه لكن نظراته تحمل دهاء الذئب، يعتبر نفسه قائدًا بالفطرة، يأمر وينهي منتظرًا تنفيذ قوله.

لكن سعد متردد، هادئ، كتوم.. دائم الصمت إلا إذا دفعته للحديث وذلك بسبب ما عاناه من معاملة سيئة من زوجة أبيه، ليكون هو الأقرب لي من محمد.

جالسين نحتسي الشاي أنا وسعد بينما محمد ينفث سيجارته، ألقى رزمة من الأموال إلينا :

-"خذا، قسما هذه الأموال بينكما"

نظرت بدهشة إلى النقود ثم إليه أتساءل من أين له بها؟

ليترجم سعد أفكاري في سؤاله:

-"من أين آتيت بهذه الأموال؟"

نفث دخان سيجارته لأعلى وأجاب بغموض :

-"لن يفيد"

أشرت لسعد أن يصمت وألا يسأل مجددًا بالرغم من شكوكنا في سلوكه ومصدر تلك الأموال.

الآن أصبح عمرنا عشرين عامًا، ومن هنا بدأت أجزم أن طريق فراق هذه الصداقة قد بدأ.. لنجد محمد ذات يوم يدخل سريعًا إلى شقتنا الصغيرة التي استأجرناها من تعب عملنا، لاهثًا بقوة يضع يده على صدره يفركه ليساعد الهواء على الوصول لرئتيه

تبادلت النظرات مع سعد من منظره قبل أن ننتفض مسرعين نحوه هاتفًا به :

-"ما الأمر؟

لماذا وجهك شاحب كالموتى؟"

جلس القرفصاء واضعًا كفيه على رأسه وقد هربت الدماء من وجهه، يتنفس بصعوبة ونظرات الذعر تلوح في عينيه واضحة للأعمى، صرخ سعد به بقلق من منظره :

-"تكلم محمد ماذا حدث؟"

-"لقد قتلت شخصًا"

قذفها كالطلقة في منتصف صدرنا فارتد جسدنا للخلف في صدمة مما قاله!!

قتل؟

محمد قتل نفسًا؟

هل وصل به الحال لهذه الدرجة أم هما من كانا غافلين عنه؟

كنت أول من استفاق من صدمته وحل محلها الغضب، جذبته من تلابيب ملابسه صارخًا كالرعد في وجهه :

-"ما الذي فعلته في نفسك أيها المجنون؟ كيف وصل بك الحال للقتل؟"

رمشت بأهدابي غير مصدقًا لما يحدث :

-"كنت أعلم أن عملك مشبوهًا، تنبأت أنه سرقة، تجارة ممنوعة، أي شيء غير القتل محمد"

لأول مرة أراه يبكي!

لأول مرة أراه بهذا الضعف!

أوليته ظهري أفرك وجهي بعصبية وغضب، لا أعرف ماذا أفعل في تلك الكارثة؟

سقط على ركبتيه بكل يأس الكون وصوته مصدوم متحشرج من البكاء :

-"لا أعلم ماذا حدث؟

كانت عملية سرقة، وكان كل شيء يسير على ما يرام، لكن تلك الطفلة التي استيقظت ورأتنا كادت أن تصرخ وتوقظ كل من في المنزل، فما كان مني إلا أن كتمت أنفاسها بيدي لأحجم صرخاتها"

ارتعش كفاه المبسوطان أمام وجهه ينظر لهما بعينين متسعتين بقهر :

-"لكنها سقطت ميتة"

شهق سعد بذهول وهو ينظر له بعدم تصديق يحني رأسه بندم :

-"قتلت طفلة محمد!

قتلت طفل لأجل حفنة من المال!"

ازداد بكاؤه أضعافًا وجسده يهتز بقوة لتصدح فجأة طرقات عالية على الباب وصوت يهتف :

-"هنا الشرطة، أفتحوا الباب حالًا"

انتفض محمد من جلسته يحيل النظر بين الباب وبيننا، يهز رأسه بالرفض ولسانه ينطق بهستيريا :

-"لا لا لا لن يُقبض عليّ، لن أعيش طيلة حياتي في عذاب من ملجأ كنت أتلقى فيه جميع أنواع الإهانة والتعذيب.. ثم المتاعب في الحياة حتى بعد هروبي.. لينتهى بي المطاف بين أربعة جدران لأشنق في النهاية"

قبض على خصلاته بقوة يقطع المكان ذهابًا وإيابًا

وما زال الطرق مدوي على الباب :

-"لا لا لن يحدث.. لن يحدث"

انكسر الباب وملأ رجال الشرطة المكان مشهرين أسلحتهم في وجهه، ليخرج مسدسًا من خلف ثيابه يوجهه إلى رأسه مهددًا إياهم بعدم الاقتراب!

الموت ليس نهاية الحياة، بل اليأس هو من يجعلنا كالأحياء الأموات، هو أول خطوة على طريق الهلاك ولا عزاء للقادم!

اقتربت منه بحذر أحاول ثنيه عما يريد فعله :

-"ألقِ المسدس محمد، إذا خسرت دنياك فلا تخسر آخرتك"

ضحك بسخرية وقال بمرارة :

-"آخرتي؟

وهل لقاتل من آخرة؟

هل لسارق وتاجر مخدرات من مغفرة ورحمة؟

هل لمدمر مستقبل أطفال صغار جعلهم يعملون معه بدلًا من الحفاظ عليهم حتى لا يلقون نفس مصيري من آخرة يا حسن؟"

هز رأسه بنفي ونظراته لن تُمحى من ذاكرتي ما حييت :

-"أمثالي مصيرهم معلوم يا صديقي، فعدني أن تنجو بنفسك"

ختم كلماته بضغطة على السلاح، أعقبها سقوطه منتحرًا خاسرًا آخرته كما خسر دنياه.

★★★★★★

الحياة عثرات

أرض قاحلة جرداء

لا حياة فيها ولا ماء

لا ترى بها غير الصخور!

فلا تقف متحسرًا مكتفًا ذراعيك بقلة حيلة

بل أصنع من تلك الصخور سلمًا نحو القمة!

مرت عدة شهور على فراق محمد، كنا نعمل أنا وسعد في ورشة لتصليح السيارات فوجدنا إعلانًا عن طلب عمال للبناء في هيئة هندسية وسوف يتم الاختيار من بينهم للعمل في الخارج.. قلنا لماذا لا نجرب حظنا!

عسى القدر يبتسم هذه المرة ويقف في صفنا!

تقدمنا للعمل لمدة شهرين كاملين، نبذل قصارى جهدنا فيه حتى ننال إعجابهم ونكون من ضمن المختارين، نحمل الرمال والطوب الأحمر إلى أدوار عالية في عمارات شاهقة.

قررت الحياة أن تمد لنا بصيص أمل وطاقة نور عندما وقع الاختيار علينا للعمل في إحدى الدول العربية.

ازداد العمل، تضاعف الجهد والتعب، ترقيت خطوة خطوة من عامل بناء لرئيس العمال ثم إلى منصب ميسور في الشركة.. كنت أحيانًا لا أتناول غير وجبة واحدة لأوفر النقود، أبذل كل شيء حتى أكون ذا شأن!

أثبت أنه ليس كل من ألقى في الشارع نهايته الموت أو السجن أو الدمار!

صار معنا مبلغًا كبيرًا فقررنا فتح شركة صغيرة جدًا في هذا المجال أنا وسعد، بدأنا من الصفر كما يقال.

تارة نكسب وتارة نخسر!

شعرنا بالاحباط أوقاتًا كثيرة لكننا لم نيأس!

حتى أصبحت شركتنا من أكبر شركات البناء في دول الخليج، واسميّ حسن وسعد أصبحا لهما مكانة عالية وصيت يقف له الكبير قبل الصغير، لأقرر فتح فرع في مصر بعد مرور عشرة سنوات على سفري.

حياتنا مجرد ذكريات يومية

سجل وقائع الأحداث

والأيام تدون الذكريات

وللأسف أيضًا تدون الجراح.

تنهدت بعمق وصمتّ قليلًا بعد ذلك الحديث الطويل، وجميع الذكريات تتدفق كالسيل الجامح في ذاكرتي

كأنها الأمس القريب ولم يمر عليها أكثر من عشرين عامًا!

نهضت من مكاني على أرض حديقة منزلي، أنظر إلى الفتاة التي كانت تستمع إليّ بدموع منهمرة على وجهها الشديد الاحمرار، فابتسمت بعذوبة أمد لها يدي لتنهض واقفة أمامي، مسحت دموعها بلطف محذرًا إياها بنظراتي أن تكف عن البكاء.

همست بالكاد أسمعها بسبب صوتها الضائع من بكائها :

-"لقد رأيت الكثير يا حسن، لكنني فخورة بك لأكتشف مرة بعد مرة أن موافقتي على الزواج منك هو خير قرار أخذته في حياتي"

ضممتها إلى أحضاني بقوة، أعشقها !

مريم.. الوحيدة التي لم تلفظني وتعاملني بقسوة وكبر، بل وقفت إلى جانبي في كل خطوة منذ أن عدت إلى هنا.. دعمتني ابتسامتها حتى وقعت في حبها لأطلبها للزواج ووافقت.

عقدنا القران وها نحن زفافنا بعد أسبوعين..

نظرت لي بعدما ابتعدت عن أحضاني قليلًا وتساءلت بحذر وترقب :

-"أنت لم تفكر في السؤال عن والدك ولا مرة منذ عودتك؟"

تحولت ملامح وجهي إلى الغضب، ثم أبعدتها عني أشيح بنظراتي بعيدًا لتقول بثقة أعرفها عندما تريد إقناع أحد :

-"الزمن يتغير يا حسن، من يعلم كيف أصبح الآن وكيف حاله؟"

أحاطت وجهي بكفيها الصغيرين تنظر لي بحنانها الذي أعشقه فأتوه بين طيات عينيها السمراواتين :

-"لمَ لا تنظر من الناحية الإيجابية؟

هل لو ظللت معه طوال حياتك كنت ستصل لما أنت عليه الآن؟"

ابتسمت بحب فظهر صفي أسنانها البيضاء تبعد خصلاتها القصيرة التي سقطت على جبهته بفعل النسيم :

-"ربك يسبب الأسباب يا حسن.. عسى قسوته كانت راحة لك من شيء أكبر كان ليحدث"

تنهدت بضيق يسكن صدري حتى صار جزءً منه، التفتت لها وقد استحالت ملامح غضبي إلى أخرى متعبة حزينة، ابتسمت بمرارة مجيبًا :

-"أول ما فعلته بعد عودتي هو الذهاب لمنزلي، دلفت وأنا أستعيد كل ما مضى كأنه الأمس.. سألت الجيران عنه أخبروني أنه أصيب بالزهايمر منذ خمسة سنوات لا يتذكر ولا يردد سوى اسم حسن"

همست اسمي ببحة حزينة أبتلع غُصة بكاء تُلح في الخروج :

-"وفي يوم وجدوه غارقًا في دمه بعد سرقة المنزل"

شهقت بفزع تضع كفها على فمها بصدمة وما لبست حتى أسرعت نحوي تضمني بقوة وهمستها دلفت

من مسام جسدي كالماء البارد تُخمد نيران القسوة بداخلي :

-"لقد انتهى كل شيء.. كل ما هو آتٍ سعيد، أنا معك لن أتركك"

شددت من ضمها لي، طابعًا قبلة على عنقها حامدًا الله جهرًا وسرًا أنه رزقني بها.

قاطعنا صوت أعرفه جيدًا هاتفًا بمرح من خلفنا:

-"أصبر قليلًا يا رجل.. كلها أيام ويتم زفافك"

التفتت لأجده برفقة زوجته حسناء يتقدمان بابتسامة ودودة، فاحتضنته بقوة مشتاقًا له بسبب سفره الذي عاد منه للتو :

-"لن تتغير أبدًا.. حمدًا لله على سلامتك"

فهتف بمرح :

-"تجعلني أسافر وتستمتع أنت هنا... الله على الظالم يا حسن"

صدحت ضحكاتنا بقوة ونحن نشد على أكتاف بعضنا بحب وقوة، وقلوبنا تدعو الله ألا يكون للفراق مكانًا بيننا.

كلمة الكاتبة..

هذه السطور ليست إلا إلقاء الضوء ولو بنسبة بسيطة على ظاهرة منتشرة في كل مكان وهي "أطفال الشوارع".

أطفال في عمر الزهور كان القدر ضدهم ليسكنوا الشوارع بعدما لم يجدوا ملجأ غيره.. عانوا القهر والظلم والسبب الأكبر هو "الفقر"

الفقر يخلق القسوة لدى الأب أو الأم نحو أولادهم، ضرب وإهانة وعدم احترام لآدمية هذا الطفل

وطفولته التي تنتهك بتلك القسوة، ليكون رد الفعل هو الهروب إلى الشارع.

وعندما تسأله :

-" أتترك بيتك وتسكن الشارع؟"

ليجيب بمرارة وقهر :

-"هذا المكان أرحم لي من قسوتهم!"

هو ذاته الفقر الذي يجعل الأب يرسل أولاده للعمل في التسول أو التجارة، منهم من يعود لبيته ليلًا ومنهم من يسكن الطرقات!

وما أدراك ما حياة الشارع!

هي بالفعل عالم أبوابه مفتوحة لكل أنواع الفساد، كثير من تجار المخدرات يستغلون هؤلاء الأطفال في الترويج وبيع تجارتهم مقابل مبلغًا بخسًا في نظرهم كنز!

المال هو الشيطان الحقيقي على الأرض!

سرقة من أجل المال

قتل من أجل المال

مخدرات من أجل المال

تجارة ممنوعة من أجل المال

المال جريمة ضحيتها أناس أبرياء لا ذنب لهم في شيء!

طفل يقتل طفل بسبب سيجارة أو بعض المواد المخدرة!

حالات الاغتصاب أكثرها من أطفال الشوارع!

قبل أن نجد حلًا لهذه المشكلة، علينا إيجاد حلًا للفقر.. للجهل.. وانحدار الأخلاق!

النهـايـة